١٠ سلسلة

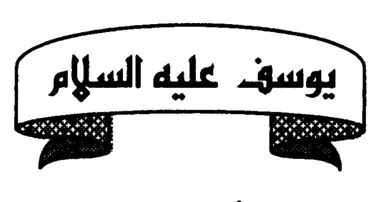
قصص الأنبياء

يوسف عليه السلام

تأليف
الشيخ /بكر محمد إبراهيم

مكتبة زهران
١٥ شارع الشيخ محمد عبده
خلف الجامع الأزهر ت ٥١٠٩٨٨٧

رقم الإيداع	١٨١٩٠ / ٩٩
ترقيم دولي	977-5096-61-8



تمهيد

قصة يوسف عليه السلام فريدة في نوعها وسياقها وأسلوبها وإعجازها ، ومقاصدها وغاياتها - أهدافها - قد اشتملتها سورة واحدة ، لم تتكرر حلقة من حلقاتها في سورة أخرى ، لهذا لما كان لها طابع خاص مميز في ترابط أحداثها وترتيب أهدافها ، ومذاق - طعم - متميز عن سائر قصص القرآن الكريم ، ولعل الحكمة في عدم تكرارها أو تكرار حلقة من حلقاتها في سور القرآن كغيرها من القصص أنها قصة أسرية موصولة متماسكة الأطراف ، متتابعة الأحداث لا تقبل الانفصال ، وقد سماها الله تعالى أحسن القصص .

مقاصدها وأهدافها :

لهذه القصة مقاصد عامة ومقاصد خاصة :

المقاصد العامة :

١- مواساة النبي ﷺ ، ومواساة المؤمنين معه في محنتهم - شدتهم - إذ نزلت في وقت عصيب اشتد فيه الكرب على النبي



ﷺ فقد أمعن المشركون في إيذائه وإيذاء من معه من المسلمين ، فأصابهم ملل فطلبوا ما يسرى - يخفف عنهم - فسألوا رسول الله ﷺ أن يقص عليهم طرفًا من أخبار الأولين وهو نبي أمي لم يجلس إلى معلم ، ولا إلى قصاص ، فأنزل الله عليه هذه السورة لتكون له ولهم أعظم سلوى .

وقد كانت بين الرسول ﷺ وبين أخيه يوسف عليه السلام أوجه شبه في الأخلاق والظروف والمحن .

أ- فيوسف عليه السلام قد آذاه وكاد له أقرب الناس إليه وهم إخوته ومحمد ﷺ قد آذاه وكاد له أقرب الناس إليه ومنهم عمه أبو لهب .

ب- وكان أول ما بدئ به يوسف عليه السلام الوحي الرؤيا الصالحة . وأول ما بدئ به نبينا في نبوته الرؤيا الصالحة كان يراها فتجيء مثل فلق الصبح - ضوء الصباح - .

جـ - وقد أوتي محمد ﷺ علمًا غزيرًا في تأويل الرؤى كما أوتي يوسف عليه السلام .

د - تآمر إخوة يوسف على قتله أو طرحه أرضًا أو إلقائه في الجب ، وتآمرت قريش على النبي ﷺ لقتله أو حبسه أو إخراجه إلى أرض بعيدة .

هـ - ألقي يوسف في الجب ، واضطر محمد ﷺ إلى الدخول في الغار ، فكتب الله النجاة لهما ، فكان خروج يوسف

من الجب منطلقًا إلى قصر واسع ، وجد فيه إكرامًا وترحيبًا ، وخرج النبي ﷺ من الغار ليلقى قومًا آمنوا به ، فحملوه على أعناقهم وطاروا به فرحًا ، وأنزلوه من نفوسهم منزلة آبائهم وأبنائهم بل وفضلوه على أنفسهم وبذلوا أرواحهم دفاعًا عنه وعن دعوته ورسالته ﷺ .

و- ودخل يوسف السجن ، وحوصر النبي ﷺ في شِعب - طريق ضيق - بني هاشم ، هو ومن معه من المؤمنين ، حتى أكلوا أوراق الشجر من شدة الجوع ، ومصوا الحصى من شدة الظمأ - العطش- .

ز- أعز الله تعالى يوسف بالملك والسلطان ، وأحوج إليه إخوته ، فأكرم وفادتهم وعفا عنهم : ﴿ **قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٩٢] .

ونصر الله سبحانه نبيه محمد ﷺ على قريش وفتح الله له مكة وملكه نواصي القوم والناصية مقدمة الرأس ، فقال بعد أن جمعهم في ساحة الكعبة : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ فقالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذا والمقصد الأصيل الجامع لكل المقاصد هو منهج متكامل في التربية الخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

إذ تحدثت السورة عن نوازع الخير والشر في الإنسان ، وانعكاس النوازع -الغرائز - على سلوكه مع نفسه ، ومع أسرته

ومع مـجتمـعه ، وكـشفت أغـوار - أعمـاق - النفس البشـرية وحللت أسـباب تلك النوازع ، ووسـائلهـا في تحقـيق مآربهـا - أغراضها - وغاياتها - أهدافها - .

* بداية القصة :

قال تعالى : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ فهي قصة قصها الله تعالى في كتـابه لتكون في الإعجاز آية من الآيات - عجـيبة من العـجائب - ولتـكون غاية من غـايات التـربية والأخـلاق ، وليـعلم من يكذب الرسول ﷺ أنه قـد جاء بالصـدق من ربه ، فكيف يقص عليـهم نبـأ - خبـر - يوسف وإخـوته بهذه الدقـة والأسلوب المحكم وهو أمـي لم يقـرأ كـتابًا ، ولـم يجلـس إلى معـلم .

و بدأت القصة برؤيـا رآها يوسف عليه السلام فقـصها على أبيه فأوصاه بكتمانها عن إخـوته لعلمه أنهم لا يحبونه كما يحب الأخ أخاه ، وأخبره أنهم لو علمـوا بتأويلها لكادوا له - دبروا له مكيدة - كيدًا يمليه عليهم الشـيطان ، وهم في قمة حقدهم عليه وحسدهم له .

وقد بشـر يعقوب يوسف - عليـهما السـلام - بالنبوة وإتمام النعـمـة بالعلم والحكمـة وتأويـل الأحاديـث لأنه هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعـقوب بن إسـحاق بن إبراهيم قال تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ**

عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

[يوسف : ٤ - ٦] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾[يوسف : ٧] أي لقد كان ولا يزال في قصة يوسف علامات واضحة على قدرة الله تعالى في إعزاز من شاء ، وإذلال من شاء وفق حكمته البالغة في تدبير شئون خلقه ، وأمارات دالة على صدق رسوله فيما يبلغ عن ربه .

ولقد كان صاحب هذه القصة هو المثل الأعلى في النبل والشرف والعزة والعفة والنزاهة والصبر والتقوى ، وكلها من جماع خصال الخير ، ومن أمهات شعب الإيمان.

* مكر إخوة يوسف وتآمرهم عليه :

ثم تذكر القصة بعد هذا التقديم أن إخوة يوسف حقدوا عليه وحسدوه على حب أبيه إياه وعلى ما أوتيه من علم وجمال ، فأتمروا على قتله أو إبعاده عن أبيه بطرحه - إلقائه - في أرض بعيدة لا يمكنه الرجوع منها إليه ولا يعرف أحد من أهله مكانه فيأتي به إلى أبيه .

وقد صور لهم الخيال المريض ونزغات - وسوسة - الشيطان آمالاً وأحلامًا تدل على سفه عقولهم وفساد رأيهم وقسوة قلوبهم، وهو أنهم لو أبعدوه سيخلص لهم حب أبيهم - ويكون قاصرًا عليهم - وينعمون بنظرته إليهم .

واتفق رأيهم على إلقائه في غيابة الجب - أعماق - ليلتقطه بعض السيارة من المسافرين ويكون في مأمن من الهلاك ، وبذلك يتم لهم ما أرادوا دون أن يزهقوا روحًا بريئة وعقدوا العزم على ذلك .

يقول تعالى : ﴿ **إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾** ﴾ . وهذا منهم أمر عجيب ، إذ يجمعوا على هذا الشر المستطير وهم عصبة مؤمنة أبناء نبي مرسل ، سمعوا من أبيهم العظات والعبر وما من شأنه غرس حب الخير ، ونزع آفات الحقد والحسد .

لكنه الهوى(١) الذي يضل عن سواء السبيل ، ويفقد الشعور بإخوة الإيمان والنسب ، وينسى ما يترتب على الجريمة من مخاطر ومهالك ، ومآزق وينسى ما أعده الله تعالى للمجرمين من عذاب

---

(١) ما تهواه النفس وتعشقه وإن كان مخالفًا لشرع الله .

في الدنيا والآخرة فأي صلاح يكون لهم بعد أن يبعدوه عن أبيه وهو قرة عينه(١) وهو بريء لم يرتكب في حقهم إثمًا .

وأعمل إخوة يوسف جهدهم في الاحتيال على أبيهم ومهدوا لطلبه منه بخطاب - حديث - مهذب وقول معسول ، وأفصحوا عن شيء لا تنطوي عليه نفوسهم ، ولا هو ترجمة لما في قلوبهم . ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾** ﴾ [يوسف : ١١ ، ١٢] .

أي أرسله معنا غدًا صباحًا يأكل ويلعب ويرعى معنا أغنامنا وهو تحت أسماعنا وأبصارنا ولا تخش عليه شيئًا فنحن له حافظون وعلى حراسته قائمون لكن أباهم لم يكن مطمئنا لوعدهم بالحفاظ عليه فقال لهم : ﴿ **قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ [يوسف : ١٣] .

أي إنه ليحزنني حقًا أن تنطلقوا به ، فأنتم لستم موضع ثقتي فمجرد خروجه معكم أمر يقلقني ويشقيني ،وأخاف عليه من الذئب لعدم اهتمامكم به وحرصكم عليه ، فأنتم عنه غافلون دائمًا ، لا تعاملونه معاملة الأخ لأخيه ، فإذا خرجتم به كانت غفلتكم عنه أشد وإهمالكم له آكد ، وهذه بصيرة من يعقوب

(١) قرة عينه : يقال عين قريرة أى : مستقرة من الطمأنينة والفرح والسرور . أما الخائف والحزين فتكون نظراته مضطربة وعينه لا تستقر ولا تسكن .

عليه السلام فتجاهل أبناؤه ما رماهم به ، ومضوا يستعرضون قوتهم ، ويستدلون على صدقهم بما لا دليل فيه ﴿ **قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ** ﴾ [يوسف : ١٤] .

واستجاب يعقوب لإلحاح أبنائه مسلمًا الأمر لله تعالى فلا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولعله كان يأمل أن يكونوا قد تابوا وأقلعوا عن الحقد والحسد لأخيهم ، وانطلقوا بيوسف بعيدًا عن العمران إلى أرض لا أنيس فيها ، ولا مغيث فرأى هناك الأهوال والشدائد .

يقول تعالى : ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ والجب بئر عميق غائر الماء ألقوه في أعماقه المظلمة دون رحمة أو شفقة وهو صغير السن والجسم مظلومًا لم يرتكب إثمًا - ذنبًا - ولكن الله تعالى أدرك هذا الغلام الصغير في سنه وجسمه ، الكبير في عقله وقلبه ، فأوحى إليه وأرسل إليه جبريل عليه السلام بما يبدد - يزيل - حزنه وأسفه ، ويجدد في قلبه الأمل والرجاء في رحمة ربه الواسعة ، ويبعث في نفسه السرور بالنصر على هذه العصبة الآثمة في يوم يقفون أمامه أذلاء صاغرين يستجدونه[١] ويطلبون منه العفو وهو يومئذ من الحكام على بلد كثير الخيرات ، خيرها للقاصي والداني - للبعيد والقريب -

(١) يستجدونه : يسألونه عطاء ، والاستجداء : السؤال الذليل .

فاطمأن قلب يوسف عليه السلام وأيقن - تأكد - أن رؤياه سوف تتحقق في يوم ما .

فماذا كان من إخوة يوسف ، هل تحرك ضمير واحد منهم فأخرجه من هذا الجب ، كلا ولكنهم تركوه في هذا الحبس الانفرادي في البئر المظلم بلا ماء ولا زاد ، ورجعوا إلى أبيهم يتصنعون البكاء تمهيدًا لخبر مشؤوم كان يعقوب يتوقعه ، فألقوه عليه بلا مقدمات على رأس أبيهم كلامًا يتناقض مع ما قطعوه على أنفسهم من وعود بالحفاظ عليه ورعايته ، وكلام ختموا به هذا الخبر يؤكد كذبهم وتزويرهم فقد لطخوا قميص يوسف بدم حيوان ذبحوه يخلو تمامًا من آثار الذئب فقد كان سليمًا وهكذا يترك المجرم ثغرة يكشف جريمته فقال لهم يعقوب عليه السلام متهكمًا - ساخرًا - ما أكرم هذا الذئب وما أحلمه أكل ولدي ولم يمزق قميصه فسقط في أيديهم - أصابهم الخزى والخذلان - واستعان عليهم أبوهم بالله وتسلح بالصبر الجميل حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً .

يقول تعالى : ﴿ **وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)** ﴾ [يوسف : ١٦ -١٨] .

جاءوا أباهم عشاء في الظلام حتى لا يلمح ملامح الكذب على وجوههم ، وقوله تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليل على أنهم كانوا بارعين في تمثيل البكاء ثم كذبوا أنفسهم بأنفسهم عندما قالوا وما أنت بمؤمن لنا - أي وما أنت بمصدق لنا - ولو كنا صادقين.

وينتهي الحديث - الكلام - من الحوار الذي وقع بين يعقوب وبنيه لينتقل إلى يوسف في بداية الرحلة الطويلة من الجب إلى الوزارة ، إلى لقاء الأحبة وتصفية القلوب ، إلى آخر عهده بالدنيا في حوادث متتابعة في نسق ونظم فريد معجز .

* الانتقال إلى بيت العزيز :

وظل يوسف في الجب حتى جاءت قافلة تجارية فحطوا رحلهم بالقرب من مكان الجب وأرسلوا إليه من يأتيهم بالماء فأدلى دلوه - إناء لحمل الماء - فتعلق يوسف في الدلو ، فلما رآه الساقي طار فرحًا واستبشر خيرًا ، وأخفاه مع رفاقه في الرحل - الجهاز والأدوات الخاصة بالمسافر - ولم يبالوا به - يهتموا - ولم يرقوا لحاله ولم يسألوه عن أهله ليسلموه إليهم ، كما هو حال أهل المروءات وذوي الأمانة فأشبهوا اللصوص في سرقتهم لأمتعة الناس وأولادهم ، فانطلقوا به إلى مصر حيث باعوه هناك إلى عزيز مصر وكان رئيسًا للجند وأميرًا للخزانة واسمه قطفير وقد اشتراه منهم بثمن بخس - قليل - دراهم معدودة ، وكانوا يريدون أن يتخلصوا منه بأي ثمن خوفًا أن يلقاه أحد من أهله فيستردونه منهم ،أو خوفًا من العزيز إذا أغلوا ثمنه أن يعاقبهم

على بيع حر تبدو عليه علامات النبل والشرف ، أو أرادوا أن يتقربوا للعزيز ليقدم التسهيلات لتجارتهم وصفقاتهم التجارية .

يقول تعالى : ﴿ **وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾** ﴾ [يوسف : ١٩ - ٢٠] . وانطلق العزيز بيوسف إلى بيته فرحًا سعيدًا ، وشاركته امرأته فرحته بقدومه ورأته وسيمًا جليلاً جميلاً، فقال لها زوجها : أكرمي مثواه - إقامته - أي أحسني إليه في كل الأحوال والشئون ، واجعليه في مصاف المقربين إلينا فعسى أن ينفعنا في شئون الملك والسياسة ، أو ننزله منزلة الولد، فإني أرى فيه من الذكاء وسعة الإدراك - الفهم - وبعد النظر ما يؤهله لذلك .

ولقد تربى يوسف في بيت العزيز منعمًا مكرمًا ، وتعلم فنون الحكم والسياسة ، وعلمه الله من فنون تعبير - تفسير - الرؤى والأحلام ما زاده رفعة وإجلالاً ، وقد وهبه - أعطاه - الله من لدنه - عنده - علمًا بشئون الدين والدنيا ، وآتاه الحكمة وأدبه فأحسن تأديبه وجعله من المحسنين في القول والعمل ، ليبعثه للناس رسولاً يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي**

مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف : ٢١ - ٢٢] .

* محنته مع امرأة العزيز :

ولبث - مكث - يوسف في بيت العزيز زمنًا حتى بدا عليه علامات الرجولة والفتوة والشباب ، فسول الشيطان لامرأة العزيز أن تراوده عن نفسه - تغريه - أكثر من مرة وألحت عليه حتى يقع عليها ويعاشرها معاشرة الأزواج ، وهو يأبى عليها - يرفض - ويعتصم بالله ويستعيذ به من الوقوع فيما تدعوه إليه ،أو في مقدمة من مقدماته لا نظرة خائنة ولا لمسة ولا قبلة ولا أي شيء من هذا القبيل فهي لا تحل له وهي امرأة غيره ، وهو الرجل الذي أحسن إليه ، وأحسن إقامته وأنزله من بيته وقلبه منزلاً رفيعًا. وقد بلغ بها الحب مبلغه وافتتنت بجماله ، ولم تطق الصبر عن تجافيه - بعده عنها - وصده وإعراضه واستعصامه ، فغلقت الأبواب عليه وخلت به ، وقد تزينت له وتوددت إليه ، وصنعت كل ما في وسعها من عوامل الإغواء والفتنة .

اتجه إلى الله يطلب منه العصمة والثبات وقال لها: معاذ الله أن أقدم على معصية الله تعالى، وأخون العزيز وقد أكرمني

وأحسن إلي، ووعظها ، وذكرها بعاقبة الظلم والخيانة،وقال لها: كيف أقابل الإحسان بالإساءة ، وقد عز عليها أن يرفض لها طلبًا وهي ذات الحسب والمنصب والجمال ، وهو منها بمنزلة الخادم ، وقد أحسنت وفادته - قدومه - وأكرمت مثواه - إقامته - .

ولقد همت به ليضاجعها - ليكون شريكها في الفراش - وكان المنتظر أن يهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقليل من الرجال من ينجو من هذه الفتنة ولكنه قد عصمه الله تعالى ورباه وأدبه ، وهو صنو أبيه يعقوب ومثيلاً له في التقوى ومكارم الأخلاق وحرف لو يفيد الامتناع .

إن بعض المفسرين نقلوا هنا أقوالاً إسرائيلية من تزييف وكذب أهل الكتاب وافترائهم على الأنبياء وهم خير خلق الله وقدوة العالمين اختارهم الله على علم فمن تنقصهم - نسب إليهم النقص - فقد كذب وباء - رجع - بغضب من الله تعالى وفر يوسف عليه السلام إلى الباب الخارجي ، فاستبقا الباب - تسارعا إليه - هو ليهرب منها وهي لتلحقه ، فأسرعت خلفه لترده إليها بقوة ، فقد أصبحت بين نارين نار الشهوة المحرقة ونار الانتقام لنفسها ، وقد قدت قميصه - قطعته - من دبر - من الخلف - طولاً من أعلى إلى أسفل ، ولكنه مضى إلى الباب ففتحه ، فإذا بالعزيز عنده فرأى ما هاله وأدهشه ، فأسرعت إليه تشكو يوسف قبل أن يشكوها في سرعة بديهة . قالت : لا أرى أن تسجن هذا الخائن الذي أراد بأهلك ما يريده الرجل من امرأته ، أو تعذبه

وتسجنه جزاء ما اقترف .

قال تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف : ٢٣ - ٢٩] .

ومع أن الدواعي قد توافرت ليستجيب لها يوسف حيث أنه كان عبدًا لها وخادمًا وكان غريبًا وكان في حاجة إلى أموالها وأموال زوجها وكان شابًا وكان عزبًا وكانت هي سيدته جميلة غنية ذات منصب رفيع وكانت تأويه في بيتها ينفق عليه زوجها وكان رفضه لطلبها يقلب عليه العداوة والاتهام والعقوبة والحقد والانتقام الذي قد يؤدي به إلى السجن أو التعذيب أو القتل ومع كل ذلك رفض رفضًا تامًا أن يستجيب لها ويتقرب إلى قلبها مع

ارتكاب الخيانة والحرام . وقد أدى هذا الأمر إلى سجنه سنوات طويلة ولكنه قال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ والله تعالى لم يذكر اسم المرأة ولا زوجها سترًا عليهما .

قوله تعالى : هو في بيتها يدل على أنها مع تمكنها منه لم تستطع إغواءه. وقوله : وغلقت الأبواب ، دليل على يئسها من مطاوعته لها وإرادة وضعه أمام الأمر الواقع . وقوله تعالى على لسانها : ﴿ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ . أي : تهيأت لك . دلالة على أن هذه المرأة فقدت توازنها فذهب حياؤها وغابت مروءتها وتناست حسبها ومنصبها فدعته إلى نفسها بالكلمة الصريحة . وقوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، دليل على قوة عزمه وتصميمه .

أما هذا الشاهد فهو عدل حكيم خبير بالشهادة والقضاء وأغوار النفوس . فقد لجأ إلى أدلة الطب الشرعي كما يقول العلامة الدكتور محمد بكر إسماعيل حفظه الله . ومن حكمته أنه لم يقطع بأنها هي التي راودته عن نفسه ، لعدم علمه بما دار في غيابه ، ولو أقر بذلك لكان حاذقًا . ولكان وقع كلامه قاسيًا على العزيز ولاستطاعت المرأة أن تصده عن شهادته بطرق وحيل شتى ، فتقع الخصومة بينه وبينها، بل بينه وبين العزيز أيضًا ، لأن الصراحة المجردة في مثل هذه الأمور يعز على النفوس والآذان سماعها فضلاً - زيادة - عن قبولها والاقتناع بها . فرأى الشاهد أن يعطي العزيز أمارة يعرف بها الحقيقة بنفسه ولا يسعه إلا أن يتقبلها ولو على مضض - كره - ليتصرف بعد ذلك في

الأمر بحسب ما يمليه عليه ضميره وتدفعه إليه فطنته- ذكاؤه - .

وكان العزيز رجلاً حكيمًا يقدر عواقب الأمور ، خشي إن تصرف بعنف وقسوة أن يفضح نفسه وأهله وأن يضر بمنصبه ، ويسيئ إلى نفسه وعرضه ويشمت فيه أعداؤه وخصومه .

* مكر النسوة بامرأة العزيز ومكرها بهن :

لعل الخبر قد شاع نقلاً عن الخدم ولعلها كشفت سرها لامرأة مقربة منها فشاع الخبر ووصل إلى نساء المدينة من زوجات الكبراء حتى عاد إلى صاحبته .

فأرسلت إليهن وكان ما حكاه القرآن : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف : ٣٠ - ٣٢] .

فالنسوة حين سمعن الخبر أردن رؤية الغلام فحرضن من يوصل إليها معرفتهن بما يدور داخل جدران القصر لعلها تدعوهن وبالفعل دعتهن وكانت أشد منهن مكرًا فاعتدت لهن متكئًا من المقاعد الوثيرة - المريحة - وقدمت لهن الفاكهة والسكاكين الحادة

لتقطيع الفاكهة ولما شرعن في إمساك السكاكين وتقطيع الفاكهة وتقشيرها أمرته أن يخرج عليهن على الفور فذهلن من رؤيته وجماله وبهائه وجلاله فجرحن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ، بعد عن هذا الشاب أن يكون فاحشًا أو شريرًا وإنما هو في أخلاق الملائكة وحسنهم وإن كان الملك لا يرى فذلك معلوم لدى الكافة فوقفت امرأة العزيز بينهن ووجهت إليهن الحديث في تبجح ونحّت عنها رداء الحياء وأخبرتهن أنها راودته عن نفسه وبرأته من الفاحشة ثم هددت بسجنه وإذلاله إن لم يفعل ما تأمر به وقالت لهن لقد رأيتن كيف كان تأثيره عليكن من نظرة واحدة فجرحتن أيديكن وشهدتن له بالجمال والجلال والبهاء فكيف بي وأنا أعيش معه في بيت واحد طول الوقت يلازمني وأدنو منه ويدنو مني وأدعوه فيتأبى علي ولكني سوف أنال منه ما أريد سواء رضي أو كره . وقد أحبته النسوة قبل أن يرينه وراودنه كما راودته امرأة العزيز فالتجأ إلى الله تعالى يدعوه ويطلب منه الوقاية والعصمة من مكرهن ومراودتهن ولو كان يأوي إلى السجن . ولقد اشتهرت قصته عليه السلام فتشاور الكبراء في شأنه واستقر رأيهم على سجنه حتى ينساه النسوة وتهدأ الفضيحة ولكن العزيز مات فنسوه في السجن فمكث فيه سنوات طوال حتى طلب عرض قصته على الملك كما ستعرفه عزيزى الشاب بعد حين : قال تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن**

مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف : ٣٣ - ٣٥] .

* يوسف في السجن :

ودخل يوسف السجن ومعه فتيان أحدهما ساقي الملك والآخر كان خازن طعامه ، وقد اتهما بمحاولة اغتيال الملك عن طريق دس السم في الطعام والشراب .

ولقد زاملا يوسف وعرفا له قدره وشهدا أنه من المحسنين ، والمحسن هو الذي يخاف الله ويراقبه حتى كأنه يرى الله أو على الأقل يكون دائم المعرفة والإحساس والتذكر بأن الله عز وجل يراه ويطلع عليه فيدفعه ذلك إلى حبه وخشيته واجتناب السيئات وإتقان العبادة وإيقاعها على الوجه المطلوب بإخلاص تام ، وملكة المراقبة هي التي تثمر الخوف من الله وطاعته وإحسان العمل.

قال تعالى :

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

[يوسف : ٣٦] .

فأخبرهم يوسف عليه السلام بما أكرمه به الله تعالى من معرفة بعض أخبار الغيب ، واغتنم حاجتهما إلى تفسير الرؤية وحسن إصغائهما ليعرض عليهما الدين الذي ارتضاه الله تعالى له ولآبائه الكرام واصطفاه لنشره بين الناس ذلك هو دين الإسلام ، دين التوحيد والإخلاص لله تعالى في العبادة: ﴿ **قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾** ﴾ [يوسف : ٣٧ - ٤٠] .

ثم أخبرهم بتأويل - تفسير - الرؤيا : ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾** ﴾ [يوسف : ٤١] .

﴿**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾ [يوسف : ٤١]

أي اعرض قضيتي على الملك .

* رؤيا الملك وعجز الملأ عن تأويلها :

رأى ملك مصر وهو من ملوك الهكسوس الذين كانوا يحتلون مصر في ذلك الوقت رؤيا أفزعته فجمع الملأ - كبراء القوم - والمستشارين فقصها عليهم فلم يستطيعوا تعبيرها - تفسيرها - .

وقالوا : أضغاث أحلام وأضغاث الأحلام كلام يدور في المنام لا رابط بين جمله وليس له تفسير .

ولكن الملك لم يقتنع بذلك حتى تذكر الساقي الذي خرج من السجن ونجا من القتل تذكر يوسف عليه السلام وتعبيره للرؤيا فطلب من الملك أن يرسله إليه في السجن وحدثه عن علمه وإحسانه وفضله .

فأرسله الملك إلى يوسف فأبى أن يخرج من السجن حتى يحقق الملك في قضيته .

وعبر له الرؤيا بأنه يأتي على مصر سبع سنين عجاف يقل فيهن النبات والأنعام لندرة الأمطار فنصح بتخزين القمح الفائض عن الحاجة في سنبله حتى لا يتلف وإنشاء الصوامع .

ثم يأتي عام بعد هذه السنوات السبع يأتي فيه القوت من الله تعالى حتى يعصر الزيت والسمسم ويكثر فيه الخير .

فحقق الملك في قضيته وجمع النسوة فشهدن ليوسف بالنزاهة وشهدت امرأة العزيز على نفسها وأقرت بذنبها وبرأت ساحته مما اتهم به .

فخرج يوسف من السجن معززًا مكرمًا وقربه الملك وأسند إليه منصب العزيز فصار مسئولاً عن الشرطة والخزانة والتموين فأدار الأزمة والمجاعة حتى مرت تلك السنون العصيبة بسلامة ، وجعل مصر مخزنًا عالميًا للغذاء حتى كان إخوته يأتونه للميرة - لشراء القمح - حتى أمرهم أن يأتوا ببنيامين أخيه دون أن يعرفوه أو يعرفوا ما دبره من احتجازه .

ثم بعد سنوات كشف لهم عن شخصيته وعفا عنهم وأحسن إليهم وطلب منهم أن يأتوا بأبيه وأهلهم أجمعين ليعيشوا في مصر في رغد وسعة وأن يلقوا بقميصه على وجه أبيه فيرتد بصيرًا بعد أن كان بصره قد كف بسبب كثرة البكاء على يوسف وأخيه الشقيق بنيامين.

فجاء أبوه يعقوب عليه السلام وأمه أو زوجة أبيه وخروا له سجدًا وكان السجود للعظماء والآباء مشروعًا في شريعتهم.

وعاشوا في مصر آمنين حتى حين ، ولما أحس يوسف عليه السلام بدنو أجله قال ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا**

وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

[يوسف : ١٠١] .

وسبحان من له الدوام والبقاء وهكذا بني العزيز ختمت قصة يوسف عليه السلام .

